الانتظار..

بقلم : أحمد محمد إسماعيل
ترجمة : مكرم رشيد الطالباني

راح صاحبي يتمعن اللوحة التي كانت تؤشر أوقات وصول ومغادرة القاطرات قائلاً :

– ان القطار الذاهب الىٰ (صوفيا) سيغادر بعد ساعة من الآن .

جلسنا سوية علىٰ المقاعد الخشبية ، كانت المحطة تعج بالناس وهم يتحركون كدبيب النمل جيئة وذهاباً ، وكانت الحقائب الممتلئة ، قد أفقدت توازن أكتاف الكثيرين ، وهم يمرون من أمامنا بشق الأنفس متجهين نحو العربات .

حولنا كانت الفتيات الحسناوات والشقراوات يضعن أياديهن علىٰ اكتاف الشبان هامسين في آذان بعضهم البعض . وحين كانت تتناهىٰ الىٰ أسماعهم صفير القطار تأخذهم الجفلة ، فيبدأون علىٰ عجل بتقبيل بعضهم البعض ثانية ، وحين يتحرك القطار كانت سواعد التوديع تلوح من النوافذ دفعة واحدة . وحين يختفي القطار يحل قطار آخر محله ، ويتكرر نفس الشيئ .

في لجة تلك الضوضاء والزحام كانت قد لفتت إنتباهي امرأة عجوز ، منزوية لوحدها محتضنة باقة من الورد ، وهي تحدق بصمت في الزحام والقاطرات . اقتربت منها ، كانت أحياناً تدمدم مع نفسها . وتحرك عينيها الزرقاوين خلف النظارة البيضاء ككرتين زجاجيتين زرقاوين ، عدت الىٰ صاحبي وقلت له :

– لقد لفتت هذه المرأة العجوز إنتباهي .

– ربما تنتظر خطيبها .

كنت أحدق في المرأة العجوز . . تحدث رجلٌ مع صاحبي لبعض الوقت – كان يبدو ببدلته الزرقاء ومصباحه اليدوي انه أحد عمال المحطة – فقال لي صاحبي فيما بعد :

– أحمل حقيبتك الىٰ القاطرة رقم (٠٠٠) . . أتعرف ماذا تنتظر المرأة العجوز ؟ !

– كلا .

خطوت بقلق لكي ألحق به .

– يقول ذلك العامل : منذ وجودي هنا ، تحضر هذه المرأة العجوز بين بضعة أيام مرة واحدة وهي تحمل باقة ورد في انتظار إبنها !

– وأين إبنها ؟ !

– كانت قد ودّعته من هذه المحطة أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم يَعُدْ ، انها تعتقد حتىٰ هذه اللحظة انه سيأتي اليوم الذي يعود فيه ! ! .

وصلت الىٰ القاطرة . أقتربت من النافذة لتوديع صاحبي . أخرجت رأسي من النافذة ، أثناء ما كنت ألوّحُ بيدي ، قلت بصوت جهوري !

– أتذكُر جارتنا الخالة (عائشة) ؟ !

أدركتُ انه لم يفهم ما قصدتُ . . بل رفع يده ليس الاّ . . كان القطار قد أخذ طريق سيره بسرعة . . وكانت مدينة (نجارست) تبتعد رويداً رويداَ .

أتجهت نحو مكان جلوسي . لم تكن المرأة العجوز تختفِ من خيالي . ولكن كانت صورة جارتنا الخالة (عائشة) تتّقِدُ في خيالي اكثر وضوحاً ، عندها عرفت ان من كل مدن هذا الكون الكثير من أمثال الخالة (عائشة) . .